الفصل الثانى

نفى اليهود
هو خاصيتهم المميزة

هذه هى الجملة الافتتاحية فى كتاب« The Origins of Zionism » للمؤلف ديفيد ڤيتال (3 : 1975)، وهى مقدمة بحثية ذات مستوى راق عن الصهيونية « ترسى معايير جديدة لكى يحذو حذوها مؤرخو الصهيونية» على حد تعبير « الملحق الأدبى للتايمز ـ The Times Literary Supplement». والآن يتصف ڤيتال بأنه مؤرخ شديد الجدية ومقروء جدًا. وكونه مستعدًا بوصفه مؤرخًا مشهورا لأن يُرَوِّج «النفى» بحيث يجعله أهم «حقيقة تاريخية» عن اليهود، إنما يعكس التغير الجوهرى الناجح الذى لحق بهذه الأسطورة الدينية القديمة. إذ إنها تحولت إلى سلاح إيديولوچى علمانى، لقد تحولت إلى صيحة القتال بالنسبة للمزاعم التاريخية التى تدعيها القومية اليهودية في القرن العشرين على فلسطين. وعلى أية حال فإن أسطورة «النفى» تمثل إحراجًا فكريًا شاملاً للجيل الجديد من المؤرخين الراديكاليين في إسرائيل الذين يناضلون لفك قبضة الصهيونية الشديدة عن التاريخ اليهودى.

ووفقًا لواحدة من النقاد الإسرائيليين المحدثين ذوى الآراء النافذة، وهى يائيل زيروباڤيل، فإن «النفى» هو النصف الثانى مما تسميه «التقسيم الصهيونى لفترات التاريخ اليهودى» (1995:15-17) [1]. وهذا نموذج فج لمرحلتين «العصر القديم» و«النفى». وفى البداية (العصر القديم) لدينا إعادة سرد قصة الكتاب المقدس باعتبارها قصة التحرر الوطنى اليهودى ولكنها تنتهى بسلسلة من حالات التمرد الوطنى الفاشلة. ثم نجد، مع «النفى»، اليهود يساقون خارج أرضهم، ويتوزعون بين شعوب معادية، فيما يوصف بأنه الشتات اليهودى(الدياسپورا)، لكى يعيدوا اكتشاف هويتهم الوطنية الحقيقية بعد ألفى سنة.

هناك اعتراضات كثيرة على هذا التناول :

أولاً ـ وُضع تاريخ النفى بداية من سنة ٧٠ ق . م ، و هى السنة التى أخمد فيها الرومان العصيان اليهودى فى يهودا التى كانت هى الولاية اليهودية فى الإمبراطورية الرومانية ، ودمروا المعبد فى القدس . وقد تم ببساطة تجاهل وجود جماعات يهودية مزدهرة فى ذلك الوقت ، أى زمن الدياسپور اليهودية ا لقديمة فى عالم البحر المتوسط وما وراءه ، وشُطب من التاريخ .

ثانيًا ـ من المهم كثيراً ما كانت أغلبية أولئك اليهود الذين عاشوا في الشتات اليهودى القديم تظنه فيما يتعلق بعلاقاتهم بمملكة يهودا ومعبد القدس ، هل كانوا يؤمنون بأنهم منفيون بالفعل ؟

ثالثًا ـ هل كان هناك حقًا «نفى» يهودى بعد سنة ٧٠ ق . م ؟

وأخيراً ـ هناك الافتراض بأن فكرة «القومية» الحديثة جداً ، وهى فى هذه الحال «القومية اليهودية» ، يمكن فرضها علي أحداث جرت منذ ألفى سنة مضت .

هذا الفصل سوف يحاول تطوير هذه الاعتراضات ، بيد أننا نحتاج أولاً أن نفهم شيئًا عن الخلفية التاريخية للتاريخ اليهودى منذ ألفى سنة مضت . والتاريخ اليهودى فى تلك الفترة له مؤرخه الخاص جداً وهو يوسيفوس ، ولا بد لأية مناقشة عن «النفى» أن تأخذ فى اعتبارها كتاباته التاريخية . وكل المؤرخين المحدثين يعتمدون عليه ، حتى مع أنه لا يمكن الاعتماد عليه بسبب سوء سمعته ، ولكن ما كتبه يوسيفوس يمكن أن يمدنا برؤية فريدة وكاشفة عن تلك الفترة ، شريطة الالتزام بالحذر الشديد فى تفسير ما كتبه[٢] .

وقد وُصف يوسيفوس بقدر أكبر من الدقة بأنه مؤرخ يهودى رومانى . فقد كان يتحدث اليونانية بطلاقة ، التى كانت لغة الطبقات المتعلمة من الرومان . وكان يحترم الثقافة والسياسات الأكثر إتساعًا فى الإمبراطورية الرومانية . ومن المؤكد أنه كان فخوراً بتراثه اليهودى ، ولكنه كان يراه متعايشًا مع الإمبراطورية الرومانية . كان يوسيفوس واحداً من أبناء الأرستقراطية اليهودية من ملاك الأراضى بالقدس التى كان زعماء الإمبراطورية الرومانية قد هذبوها بدرجة كبيرة . فقد كانت روما تحكم يهودا من خلال

هذه الزعامة اليهودية فى القدس. وعلى الرغم من أن الديانة اليهودية كانت متمركزة فى يهودا، وفى موضع المعبد بالقدس بصفة خاصة، فقد كانت معروفة فى شتى أرجاء الإمبراطورية الرومانية، لأن أعدادًا كبيرة جدًا من اليهود كانوا يعيشون في أجزاء مختلفة منها. والحقيقة أن تراثًا هائلاً من الحج كان قد تطور، حيث كان اليهود من كل أنحاء عالم البحر المتوسط وما وراءه يسافرون إلى المعبد فى القدس لتقديم الفروض. وكانت الأعياد اليهودية الكبيرة أعيادًا شعبية بشكل خاص. وكانت أعداد كبيرة من بقاع بعيدة تتجمع هناك (Goodman 1987:52).

كانت الديانة اليهودية قد تشكلت في يهودا (انظر الفصل الأول) وفى بابل قبل أكثر من ٢٥٠٠ سنة مضت. أما كيفية حدوث ذلك، فمن المؤكد أنه يخرج عن مجال هذا الكتاب[٣]. ولكن يوسيفوس لديه موعظة شعرية جميلة عما حدث بعد أن هزم الإسكندر الأكبر الإمبراطورية الفارسية وتعرف للمرة الأولى على القدس، قبل ٢٣٠٠ سنة:

«لأنه بينما بقى الإسكندر بعيدًا رأى الجموع فى المسوح البيضاء، والكهنة ورؤوسهم مغطاة بالكتان، وقد ارتدى الحبر الأكبر ثوبًا من الياقوت الأزرق والذهب، وقد وضع على رأسه التاج وعليه شريط ذهبى نقش عليه اسم الرب، اقترب وحده وسجد أمام الاسم، وقام أولاً بتحية الحبر الأعظم. ثم قام جميع اليهود سويًا بتحية الإسكندر بصوت واحد وأحاطوا به» (Josephus, Jewish Antiquities,11; cited Modrzejewski1995:52).

عاشت أغلبية اليهود خارج يهودا منذ ألفى سنة مضت وسبعين سنة قبل (النفى)

ينصحنا البروفيسور مودرزيچيفسكى، أستاذ التاريخ القديم بالسوربون، أن نأخذ بجدية شديدة هذا الوصف للقاء الاحتفالى بين الإسكندر واليهود فى القدس. ومع هذا «فإن الحملات المظفرة للإسكندر الأكبر (٣٣٦-٣٢٣ ق.م) كانت نقطة

فارفة . . . عصراً جديداً فى التاريخ بإقليم البحر المتوسط بدأ عندما واجهت العقلانية الإغريقية الروحانية اليهودية (*) . . . لقد أرست غزوات الاسكندر حدود إمبراطورية عالمية . . . لقد قيض لها أن تكون النموذج بالنسبة للرومان»(Modrzejewski,1995:47).

ويزعم مودرزيچفسكى أن يوسيفوس يسجل حدثًا ذا أهمية بالغة، حتى ولو كان ذلك على سبيل الرمز. فقد بدأ شتات اليهود فى جميع أنحاء عالم البحر المتوسط في أعقاب غزوات الإسكندر. ووفقًا لچون باركلاى الذى قام بدراسة مرهقة عن الشتات القديم في عالم البحر المتوسط فى تلك الفترة، كان هذا يصدق فقط على مصر بصفة خاصة عندما صارت جزءًا من إمبراطورية الإسكندر الإغريقية. فقد تم تجنيد أعداد كبيرة من اليهود جنودًا وموظفين فى الحكومة. كما جاء كثير منهم عبيدًا ومهاجرين بسبب الظروف الاقتصادية (Barclay 1996:20-2).

وفى المقابل، وافق الإسكندر وخلفاؤه البطالمة فى مصر على احترام الشريعة اليهودية وحمايتها (Modrzejewski 1995:55). وهناك بعض الأدلة على أن الإسكندر كان يسير على هدى سابقة أرستها الإمبراطورية الفارسية قبله، حيث كان هناك أيضًا شتات يهودى (أصغر حجمًا). وكان هذا يعنى التسامح مع الاستقلال الدينى اليهودى المرتكز فى معبد القدس مقابل الخدمات التى يؤيدها اليهود. وهناك وثائق مثيرة من مستعمرة يهودية أسبق بفترة زمنية كبيرة فى جزيرة ألفنتين فى نيل مصر (بأسوان الحالية)، كانت تخدم الإمبراطورية الفارسية، يعود تاريخها إلى فترة السيطرة الفارسية (Modrzejewski 1995:21-44).

هذه السوابق تبدو وأنها قد ثبتت نموذجًا مألوفًا للعلاقة بين اليهود وحكام الإمبراطوريات القديمة، بل إنها امتدت حتى دول العصور الوسطى، بعد ذلك بحوالى ألف سنة.

وفى الإسكندرية، المدينة التى بنيت لتخليد ذكرى مؤسسها على الساحل المصرى

(*) لا تخفى وجهة نظر مودرزيچفسكى بالكثير من القبول ولا الانتشار، فالإسكندر واجه الفرس والتراث الثقافى المصرى، وخلط بين العناصر الهيللينية (اليونانية) والعناصر الآسيوية فى المناطق ذات الحضارات القديمة (مصر والشام والعراق وفارس والهند)؛ ولهذا عرفت الفترة التالية لدى مؤرخى العالم القديم بإسم الحضارة الهيللينستية، أى الجامعة بين الإغريق والأسيويين. ـ المترجم.

المطل على البحر المتوسط والتى صارت القلب السياسى والتجارى للإمبراطورية، نمت الجماعة اليهودية بمعدل خارق للعادة لتصل إلى ما لا يقل عن ثلث إجمالى عدد السكان البالغ خمسمائة ألف نسمة (Modrzejewski 1995:73)، وقد سيطرت روما على إمبراطورية البطالمة المتداعية، ومن المؤكد أنه بحلول القرن الميلادى الأول «كانت غالبية اليهود يعيشون خارج يهودا» (Barclay 1996:4n.1).

يهود مصر منذ ألفى سنة مضت

لا شك إنه كانت هناك عائلات بارزة كثيرة من عائلات الشتات اليهودى فى الإمبراطورية الرومانية، وكان رئيس إحدى هذه العائلات هو «فيلون السكندرى»، ولكن مصادرنا محدودة جدًا واعتمدت فى بقائها بعد ألفى سنة على صُدَف التاريخ مثل الرمال الجافة في الصحراء المصرية التى خزنت أحيانًا أوراق البردى، أو فى هذه الحال الانبهار المسيحى بهذا الفيلسوف اليهودى اليونانى. «لقد كان المسيحيون الأوائل على ألفة بمقولة يونانية تقول «Either Plato philonises or Philo platonises» أى أفلاطون الفيلونى، أو فيلون الأفلاطونى كما يقول الراهب المسيحى چيروم (Barclay 1996:165).

« لقد كان فيلون على قمة الجماعة اليهودية فى الإسكندرية. . . على ذروة التراث الفلسفى اليهودى. . . مرتبط على نحو عميق بالثقافة الهيللينستية» (Barclay 1996:158)، لقد كان فيلسوفا أفلاطونيًا، ولكن على حد تعبير فيلون« فى مدرسة موسى» (Barclay 1996:163).

كان شقيق فيلون هو الإسكندر كبير مفتشى رسوم الجمارك «آلابارخ- Alabarch»، التى كانت تجبى على الضفة الشرقية للنيل. وكان واحدًا من أغنى الرجال فى المدينة، وكان يعطى منحة للمعبد فى القدس من صحون الذهب والفضة لبواباته التسع. ويزعم يوسيفوس أنه كان «مشرفًا» أيضًا، وربما كان مستشارًا، على الرغم من أن معناها غير مؤكد، لأم كلوديوس الإمبراطور الرومانى (Barclay 1996:158-160).

وكان تيبريوس جوليوس إسكندر ابن أخى فيلون. وعيَّنه الإمبراطور كلوديوس وكيلاً قضائيًا فى يهودا، وقد ساعد فى وقت لاحق فى إخماد العصيان اليهودى بالقدس. ويخبرنا يوسيفوس أن تيبريوس تخلى عن عادات أسلافه (Modrzejewski 1995:186-8).

وسيكون من الحماقة أن نخرج باستنتاجات عامة من عائلة واحدة، خصوصًا هذه العائلة. بيد أن هناك صفة خاصة واحدة تظهر بالفعل. فعلى الرغم من أن هذه عائلة مندمجة تمامًا، فإن اثنين من أعضائها البارزين تمسكا باليهودية تمامًا. وقام الثالث بقطيعة نهائية مع هذا الدين. ولكن حتى هنا لا يوجد بالضرورة مؤشر على موقف تجاه الإمبراطورية الرومانية الوثنية.

أما يوسيفوس، الذى كان قائد التمرد اليهودى ضد الجيوش الرومانية فى الجليل، فقد غير موقفه إلى الجانب الآخر. وحتى فى ظل الحماية الرومانية، أقسم على استمرار التزامه بديانته اليهودية.

لقد كانت هناك مستويات عالية من الاندماج بين الجماعة اليهودية فى مصر. فقد خدم اليهود فى كل مراتب الجيش الإغريقى الإسكندرى، فى صفوف المشاة وفى الفرسان «من المشاة المتواضعين إلى الضباط والصَّرافين فى الجيش» كما يقول باركلاى (Barclay 1996:115). وفى معظم الحالات كانوا يخدمون فى الوحدات العسكرية التى تضم أجناسًا مختلطة.

كان معظم اليهود مرتبطين بنظام الكليروخوس، وهى الآلية المستخدمة لفرض الحكم الرومانى فى الريف. وجنبا إلى جنب مع الجنود المرتزقة المهاجرين من أجزاء أخرى فى الإمبراطورية، أعطيت لهم مساحات من الأرض ومن ثم تحولوا إلى ملاك أراضى صغار يرتبطون بالامتنان والالتزام للبيروقراطية الإمبراطورية (Tcherikover and Fuks 1957:11-17)[٤]. وقد أدى هذا حتمًا إلى الاستياء بين الكليروخوس المهاجرين من ناحية والفلاحين الأهالى من ناحية أخرى (Modrzejewski 1976:48).

فهل كان الاندماج ـ إذن ـ مع المجتمع اليونانى ثم، فيما بعد، المجتمع الرومانى الامبراطورى فقط وليس مع الأهالى المصريين؟ «حقا إن اليهود المصريين تخلوا عن العبرية ثم الآرامية وأنتجوا أدبًا باليونانية» (Modrzejewski 1995 XI,XII).

ومع هذا ، علينا أن نخشى من التعميم العقائدى . فبالإضافة إلى ما ذكرناه، كان هناك عدد ضئيل من الفلاحين اليهود فى مصر . ونسمع عن راعى اسمه باسوس اليهودى، كان يعمل فى ضيعة مملوكة لرجل غير يهودى . كان باسوس «على الأقل يحظى باعتراف بأنه جاء أصلاً من يهودا» (Barclay 1996:115) . وهناك «سيوس اليهودى» الذى كان مدينًا لتاجر صوف غير يهودى . ونجد يهوديًا آخر «يرعى القطيع المملوك لمعبد مصرى» (Barclay 1996:115) ولدينا أيضًا حرفيون وبناءون، ونساجون، ومكارية حمير، ومراكبية، يعملون فى بعض الأحيان لدى غير اليهود (Barclay 1996:116) .

وينعكس بعض الإحساس بالاندماج فى المجتمع المصرى المحلى فى كتابات أحد المؤلفين اليهود، وهو أرطبانوس، على الرغم من أنه كتب باللغة اليونانية والذى كان متعاطفًا مع العبادات الدينية المصرية (Barclay 1996:127-32) (على الرغم من أن معظم الكتابات الدينية اليهودية كانت تهاجم العبادات المصرية) (Barclay 1996:46) . ولكننا لا نستطيع سوى أن نخمن هذا الاندماج . وعلى أية حال، فإن فيلون لا يترك لدينا شكًا بشأن المكان الذى يسميه اليهود وطنهم، من وجهة نظره .

فيلون: «الشتات القديم هو الوطن»

بينما يعتبر فيلون أن فلسطين، أو جزءًا منها على الأقل، هى الأرض المقدسة، فإنه لم يكن يعتبرها الوطن . وقد قالت ساره پيرس إن :

«مناقشاته بشأن الرحلة سعيا وراء الحكمة تؤكد على أن الشخص الحكيم، الذى يتجسد فى مثال إبراهيم . . . ينبغى أن يهجر الوطن الذى يرتبط غالبًا وبشكل صريح بالجهل أو الديانة المزيفة لصالح الوطن الحقيقى، الذى هو مملكة الرب، أو الفضيلة . . . كما أن الانفصال عن وطن بعينه يشكل جزءا من تقديم فيلون للحكماء باعتبارهم «مواطنين عالميين» يسمون فوق الارتباط بأماكن معينة . . .» (Pearce 1998:100)[٥] .

وما يخلب الألباب فى منظور فيلون، هو كيفية تنبؤه بالعالمية الحديثة التى خرجت من طيات الشتات اليهودى الأوروبى فى العصور الوسطى، والتى أصبحت جزءًا رائعًا من التراث التنويرى اليهودى . وثمة جانب أكثر إظلامًا فى هذا بطبيعة الحال .

ويتمثل هذا الجانب المظلم فى التراث الذى ساعد دائما على تغذية اللاسامية الحديثة والهجوم على «الكوزموبوليتانية اليهودية» التى لا جذور لها، والتى كانت الصهيونية أحيانًا تقلدها ببراعة[٦] ويبدو أن الكوزموبوليتانية اليهودية أقدم من الصهيونية بما يقرب من ألفى سنة!.

ويعترف فيلون بالأهمية الحتمية لارتباط الناس بوطنهم: «الإخلاص الوطنى... من بين أسمى الخيرات، وأمر به الرب فى شريعة موسى» (Pearce 1998:100-1) بيد أن «الوطن» هو «قبل كل شىء هو المكان الذى وُلد فيه المرء وتعلم فى رحابه» والواقع أن «الأرض المقدسة» ليست «الوطن»، وإنما هى «أرض غريبة»:

«يفترض فيلون شعورًا مشتركًا فى الارتباط بالأوطان المحلية عندما يصور الحج إلى معبد القدس باعتباره «أقسى امتحان»، يتطلب التخلى مؤقتًا عن الوطن والعائلة للعيش فى أرض غريبة. «ولا شك فى أن الإخلاص للمعبد وشرائعه تمثل المركز فى هوية فيلون اليهودية. ولا يعنى هذا، على أية حال، أن هذا التعبير عن الالتزام يجب أن يُقرأ بمصطلحات تهمّش ولاءه المحلى» (Pearce 1998:101).

ولدينا هنا تأكيد بأنه لم تكن هناك رابطة ضرورية بين البؤرة الدينية فى الحج والمعبد وبين الإخلاص الوطنى «للأرض الموعودة».

كيف يتناسب منظور فيلون مع بقية الشتات اليهودى فى العالم القديم؟ إن مصادرنا محدودة للغاية. ومع هذا نجد هنا استنتاج باركلاى الذى يختتم به تقويمه لمصادر تاريخ اليهود فى روما منذ ألفى سنة:

«إن مسحنا لتاريخ يهود روما كان موجهًا إلى درجة كبيرة على أساس من «اللقطات الفوتوغرافية»... إلا أن هذه وفرت... صورة متماسكة إلى حد بعيد. وباعتبار اليهود إحدى أقليات كثيرة مهاجرة فى روما، كانوا خاضعين لازدراء النخبة الرومانية على المستوى الاجتماعى والثقافى، حتى على الرغم من أن أفرادًا استثنائيين من اليهود كانوا معروفين فى البلاط الإمبراطورى. على أية حال، فإن استمرار عادات اليهود الموروثة، وجاذبيتهم الخاصة للرومان من طبقات اجتماعية كثيرة كانت ملامح خاصة بالصورة اليهودية، بالقدر الذى لفت الانتباه العدائى من جانب تيبريوس، وكلاوديوس، ودوميتيان... ولم يحدث أن كان اليهود الرومان من الكثرة أو كانوا

يمثلون تهديداً للعامة من الرومان أو الطبقات الحاكمة بحيث تقع حوادث عنف من النوع الذى شهدناه فى المدن السورية والمصرية والليبية. ولأن أيديهم كانت نظيفة من الحروب فى يهودا وتمرد الشتات سنة ١١٦-١١٧م، استطاعت الجماعة اليهودية فى روما أن تحتفظ بتاريخ متواصل استمر حتى يومنا هذا» (Barclay 1996 : 318-19).

اليهود وغير اليهود فى الشتات القديم

يبدو معقولاً أن نقر بأن يهود روما كانوا يعتبرون روما «وطنًا» لهم. ومع هذا فإن باركلاى يكتب عن العنف فى أماكن أخرى من الشتات. ومن المستحيل أن نحكم على مستويات كثافته أو أثرها على تجذر اليهود محليًا. فقد كان يرتبط أحيانًا بالطريقة التى كان الحكام الأباطرة يجعلون الديانات المختلفة والمجموعات العرقية المختلفة تتحرك بعضها ضد العض. «ومذبحة الإسكندرية» سنة ٣٨ ميلادية كان من بين أسبابها الطريقة التى أدارت بها روما العلاقات بين الاغريق واليهود والمصريين فى المدينة (Barclay 1996:48). ولا شك فى أن اليهود كانوا عرضة لعداوة خاصة إذا ما نظر إليهم على أنهم يفرضون سياسات إمبراطورية غير شعبية (مثل نظام الكليروخس فى مصر). وبشكل عام فإن اليهود الذين عرفوا بإدراكهم لاختلافهم الدينى، وربهم الواحد الخفى، وبالختان، وقوانين الطعام ومراعاة السبت، كان من السهل أن يستعبدوا الآخرين. «ولأنهم كانوا موالين لبعضهم بعضًا، فإنهم كرهوا الآخرين جميعًا» كما يقول المؤرخ الرومانى تاكيتوس. (Goodman 1987:98).

وغالبًا ما يشير يوسيفوس إلى كراهية السوريين الراسخة لليهود (Barclay 1996:248) وهو عادة مصدرنا الوحيد، وينبغى أن نكون حذرين، لأنه ترك لنا صورة بديلة مُعذَّبة أيضًا. ففى نفس الفترة التى كان فيها التوتر بين اليهود وغير اليهود يتصاعد بسرعة، مباشرة قبل التمرد اليهودى ضد روما، يقدم يوسيفوس الدليل على أن غير اليهود كانوا منجذبين تجاه اليهود. فهو يكتب عن كل مدينة كان لها «مهودوها»، المبشرون اليهود الباحثون عمن يريد اعتناق اليهودية، وعن عنصر «مختلط» ليس يهوديًا خالصًا ولا غير يهودى (Barclay 1996:248). وفى دمشق يزعم أن الجميع «فيما

عدا زوجات قليلات من الدمشقيات قد اعتنقن الديانة اليهودية» وفى أنطاكية، وهى مدينة قديمة فى نفس المنطقة، كانت اليهودية تجتذب عدداً كبيراً من اليونانيين (Barclay 1996:254).

وتقول مصادر العهد الجديد من الكتاب المقدس المزاعم نفسها؛ ففى قيصرية كانت اليهودية تنتشر حتى بين العسكريين، كما يقول كرنيليوس (أعمال الرسل، الإصحاح العاشر: ١-٢)(*) (Barclay 1996:254) وكان يوسيفوس على ثقة تامة من أن اليهودية لا يمكن مقاومتها فى النهاية:

«لقد أظهرت الجماهير على مدى فترة طويلة من الزمان شغفًا عظيمًا بديانتنا... وليست هناك مدينة واحدة، إغريقية أو بربرية... لم تتسرب إليها عادة يوم السبت الذى نخصصه للعبادة؛ حيث الصيام، ووُقود المصابيح، والكثير مما نحرمه بالنسبة للحوم تتم مراعاته..... وبدون الطُعم المغرى للفرح الحسى، ولكن فقط بسبب الجدارة الجوهرية الذاتية برهنت الشريعة [اليهودية] على مدى فعاليتها الشديدة» (Josephus 1996 :282).

وربما يكون يوسيفوس مبالغًا كما يؤكد ذلك معظم الباحثين فى العصر الحديث. ولكن، على الأقل، فإنه من المؤكد يعكس الثقة بالنفس لجماعة فخورة بديانتها. إنه لا يمكن أن يكون وصفًا لجماعة معزولة تعيش فى «المنفى» (الواقع أنه عند هذا التقاطع بالضبط بين اليهود والوثنيين، بدأت العبادة اليهودية المسيحية تبتعد عن بعض التحريمات الأكثر صرامة فى اليهودية. وأشهر يهودى فى الشتات وهو «بولس الطرسوسى» [بولس الرسول]، سوف يقوم برحلة يطوف فيها بجماعات الشتات، يبشر فى معابدهم ويوحد بين المتعاطفين من اليهود والأمميين. أما الباقى، فهو كما يقولون، تاريخ معاد لليهود بالتأكيد، ولكنه يبقى شهادة على حركية وإبداع الجماعة اليهودية فى الشتات فى القرن الميلادى الأول)(٧).

(*) يقول النص «وكان فى قيصرية رجل اسمه كرنيليوس قائد مائة من الكتيبة التى تُدعى الإيطالية، وهو تقى وخائف من الله مع جميع بيته يصنع حسنات كثيرة للشعب ويصلى إلى الله فى كل حين». وليس فى هذا ما يؤيد زعم يوسيفوس، والذى يقول كثير من المؤرخين إنه يجب أن يؤخذ كلامه بكل حذر ـ المترجم.

منذ ألفى سنة
عاش اليهود فى جزء من
أرض إسرائيل ـ سامرا والجليل ويهودا

ماذا عن اليهود الذين يعيشون فيما يسمى «أرض إسرائيل»؟ أولا يجب علينا أن نتذكر من الفصل الأول أن «أرض إسرائيل» بحد ذاتها أسطورة دينية. فمنذ ألفى سنة مضت كانت هناك ثلاثة أجزاء جغرافية وسياسية متمايزة تكون ما يسمونه «أرض إسرائيل»، التى تبنى عليها الصهيونية الحديثة مزاعمها، وهى السامرة ويهودا والجليل. وكل منها يحتاج إلى أن نتدبره بشكل منفصل.

تكشف السامرة عن أعمق خطوط التصدع بالنسبة للصهيونية. فحتى يومنا هذا، هناك هوية سامرية فريدة، ليست لها روابط بإسرائيل الحديثة أو اليهودية الحديثة كما هى مفهومة فى الغرب. وهناك مؤرخ واحد، هو كوجينز، قد أمعن النظر بحق فى مغزى وجود ثلاثة مرشحين من السامرة شاركوا فى انتخابات المجلس التشريعى الفلسطينى الافتتاحى فى الضفة الغربية سنة ١٩٩٦م. وكما يكتب: «إن تمايز السامرة باعتبار أنهم ليسوا عربا ولا إسرائيليين، هو ما تم الاعتراف به على هذا النحو» (Coggins 1998:66).

لقد أصرَّ السامريون على أنهم يهود، ولكن فى القرن الأول كان بينهم وبين مملكة يهودا عداء مستحكم. وقد أذكى نار العداوة بينهم رفض السامرة الاعتراف بمعبد القدس. وبدلاً من ذلك، كانوا يتعبدون فوق جبلهم، «جبل جرزيم»، وتتمثل الصعوبة هنا فى أنه لا توجد وثيقة باقية من السامرة. ومعظم الوثائق يهودية، بالمفهوم الذى يمثله معبد القدس، كما أنها معادية للغاية. وقد لخص ميللر مدى ضآلة ما نعرفه عن السامرة:

«إن الكيفية التى رأوا أنفسهم بها، قد تم التعبير عنها بشكل واقع من خلال نقشين باليونانية فى جزيرة ديلوس اليونانية [مما يكشف عن شتات سامرى]».

«إن الإسرائيليين [٨]... الذين يدفعون ضرائب العشور إلى جبل جرزيم المقدس.

والتاريخ الحقيقى، وحجم الاستيطان ونماذجه فى الجماعة السامرية فى السامرة نفسها، غير معروف سوى فى نطاق ضئيل بدرجة غير عادية. ومن خلال الأدلة التى ترجع إلى تلك الفترة لا نعرفهم سوى من الخارج، كما هو الحال مثلاً فى وصف إنجيل يوحنا عن الكيفية التى تحدث بها يسوع مع امرأة سامرية عند بئر يعقوب(*) «آباؤنا عبدوا الله فى هذا الجبل، وأنتم اليهود تصرون على أن أورشليم يجب أن تكون المركز الوحيد للعبادة» (يوحنا ٤ : ٢٠). ولم يمرُّ وقت طويل على هذا التاريخ الدرامى، حتى أرسل بونثيوس بيلاطس تجريدة عسكرية لذبح جمهرة من السامريين كانوا قد تجمعوا فى قرية بالقرب من جبل جرزيم، على أمل أن تظهر الأوانى المقدسة التى كان موسى قد أودعها هناك (كما تذكر رواية يوسيفوس). وبعد ذلك بثلاثين سنة، فى المراحل الباكرة من التمرد اليهودى، تجمع عدد كبير من السامريين مرة أخرى فوق جبلهم المقدس، وفى صيف سنة ٦٧م، تم ذبح ما يربو على أحد عشر ألفًا بأيدى القوات التى أرسلها الإمبراطور الرومانى ڤيسپاسيان. . . » (Millar 1993:341).

لا يوجد دليل على أن يهود يهودا ويهود السامرة قد استطاعوا أبدًا أن يجدوا قضية مشتركة فى نضالهم ضد الرومان على الرغم من قسوة عدوهم المشترك. وهذا ما يشكل نقطة لها دلالتها الموحية جدًا. فمنذ ألفى سنة مضت، لم تستطع مملكة يهودا القديمة أن تؤكد سلطتها على السامرة، كما رفضت السامرة أن تعترف بالسلطة الدينية للقدس. وليس ثمة معنى لمسألة الاعتراف بسلطتها الوطنية خارج هذا الإطار الدينى.

بل إن الجليل تطرح مشكلات أشد خطورة

فقد وصف الباحث المتخصص فى لفافات البحر الميت، جيزا ڤيرميس، الجليل فى كتابه المميز «Jesus the Jew» (يسوع اليهودى)، الذي يفحص الجذور اليهودية ليسوع وسياق قصته. وإن قدرة الكاتب الفذة على استخراج التاريخ الحقيقى من الأناجيل، والكتابات الدينية التى للربيين اليهود مثل التلمود، وما كتبه يوسيفوس، قد أدت إلى

(*) «وجاءت امرأة سامرية إلى البئر لتأخذ ماء، فقال لها يسوع: «اسقنى». . فقالت: «أنت يهودى وأنا سامرية، فكيف تطلب منى أن أسقيك؟» فإن اليهود كانوا لا يتعاملون مع أهل السامرة» يوحنا: ٤ : ٧-٩ المترجم.

نتائج مذهلة. فهو يكشف عن يهودية فلاحية خشنة، ومرتجلة، فى القرن الأول الميلادى، على خلاف مع القدس وبنفس درجة الخلاف مع روما. ففى البداية كانت الجليل (شمال فلسطين) محكومة بشكل منفصل عن يهودا «وهى حقيقة عززت من إدراك أهل الجليل ووعيهم بذاتهم» (Vermes 1983:45) هذا الوعى المحلى والإقليمى عكس أيضًا الجغرافيا الاقتصادية. فقد كانت الجليل أرضًا خصبة على نحو خارق للعادة، إذ إن زيت الزيتون الذى كانت تنتجه، مثلاً، كان يصدَّر إلى جميع أنحاء عالم البحر المتوسط. والاكتفاء الذاتى الاقتصادى للجليل «ربما يكون قد غذى كبرياء السكان واستقلالهم» (Vermes 1983:46).

وقد كان زعماء المعبد فى القدس يبغضون أهل الجليل. فقد كانوا «فلاحين»، ولكن الكلمة العبرية توحى أيضًا بأنهم كانوا غير متعلمين دينيًا. والاقتباس التالى من التلمود يعكس الاستياء المتبادل بين يهود المعبد الأرثوذكس وبين يهود الجليل (الفلاحين=عام هاآرتس):

«لا يجوز لأى رجل أن يتزوج ابنة أحد اليهود الفلاحين؛ لأنهم مثل الحيوانات النجسة، ونساؤهم مثل الأفاعى، وعن بناتهم يقول الكتاب المقدس: «ملعون من يرقد مع أى صنف من الحيوان» (Vermes 1983:54 -5).

ويشى اقتباس من التلمود أيضًا بأن الكراهية بين القدس اليهودية وريف الجليل اليهودى كانت أكثر كثافة منها بين اليهود والوثنيين: إن كراهية العام هاآرتس أكبر تجاه المتعلمين من كراهية الوثنيين لإسرائيل، ولكن كراهية زوجاتهم تظل هى الأكبر» (Vermes 1983:55).

ويجد ڤيرميس ملاحظة فى أحد الأناجيل تردد أصداء مثل هذه العداوة، وتقول هذه الملاحظة: «من المؤكد أن المسيح ليس من الجليل». (Vermes 1983:55).

وكما هو الحال بالنسبة للسامرة، لا يوجد دليل على أن الجليل قد انضم إلى يهودا فى صراع مشترك ضد روما. والواقع أن راچاك، فى كتابها عن سيرة يوسيفوس، قد أسمت الفصل الذى خصصته عن الجليل «الحرب الأهلية فى الجليل»، كاشفة عن حقيقة أن القتال داخل الإقليم كان اقتتالاً بين البعض والبعض الآخر أكثر من كونه قتالاً

ضد روما . وهى تزعم أن الموقف كان قريبا من الفوضى الكاملة . (Rajak 1983:165).

لقد كان يوسيفوس هو القائد الأعلى بالقدس المسئول عن الجليل عند بداية التمرد اليهودى . وتتميز راچاك بالصراحة الكاشفة وهى تتحدث عن ولاء الجليليين لقائدهم القادم من القدس :

«يخبرنا يوسيفوس . . . عن عصابات لم يستطع نزع سلاحها ، ومن ثم ضمهم إليه مرتزقة . . . وإذ وجد نفسه قائدا طموحًا لما يشبه عصابة من الرجال المتوحشين ، انتفخت بمن انضم إليها من الفلاحين الذين لا مأوى لهم ، والقرويين الغاضبين» (Rajak 1983:145).

ومع هذا ، جاء بعض أهل الجليل إلى يهودا ، وربما إلى القدس ، لكى يحاربوا . أما ما كانوا يحاربون من أجله هم وسكان يهودا فهو السؤال الذى يجب أن نحاول الإجابة عليه الآن .

التمرد اليهودى ضد روما ٦٦-٧٠م

يرمز التمرد اليهودى ضد روما (٦٦-٧٠م) إلى نقطة فارقة كبيرة فى التاريخ اليهودى القديم . وكونها حربًا من أجل التحرر اليهودى أمر لا شك فيه ؛ أما إذا ما كانت تصلح نموذجا قانونيًا مشروعًا لحركة قومية يهودية مثل الصهيونية ، فهو الأمر الذى يثير الكثير من الشكوك بكل تأكيد .

ولنبدأ بالعائلة الثورية غير العادية عائلة يهوداس الجليلى . فقد ولد عند بداية القرن الميلادى الأول ، وقاد المعارضة ضد التعاون مع الإحصاء الرومانى وكانت تلك وسيلة لتجنب دفع الضرائب . وبعد ذلك بأربعين سنة ، تم صلب اثنين من أبنائه هما ، يعقوب وسمعان ، بسبب أعمال التحريض الثورية . وكان هناك ابن باق ، هو مناحم ، الذى صار فيما بعد أحد الزعماء الثوريين فى القدس .

وكان هناك ابن أخ لمناحم ، اسمه إليعازر ، هو القائد الأسطورى لصخرة مسعدة «الماسادا» ، حيث قامت عدة مئات من اليهود ، بعد الصمود أمام الرومان فى أعقاب سقوط القدس ، بعملية انتحار جماعى فى نهاية الأمر .

وربما يثور الاعتراض على أن مصدرنا عن هذه السلالة هو يوسيفوس، ومن ثم فإن التاريخ الذى يكتبه لا يمكن الاعتماد عليه. ولكن الصهاينة يكونون أكثر من سعداء باستخدام يوسيفوس عندما يناسبهم. لقد صارت صخرة مسعدة أحد أهم أماكن الجذب السياحى فى إسرائيل الحديثة، وتستخدم بصفاقة كوسيلة لصناعة الدعاية الصهيونية. ووفقًا لييجال يادين، أشهر أثرى إسرائيلى أجرى حفائره فى الموقع، فإنه «من خلال الزيارات إلى الماسادا، يمكن أن نعلم إخوتنا [فى الشتات] ما نسميه اليوم الصهيونية» (Zerubavel 1995:67). وغالبًا ما تتضمن الكتيبات السياحية مستخرجات من خطبة أليعازر الشهيرة عن «الحرية» عشية الانتحار الجماعى (Zerubovel 1995:134). والخطبة مستخرجة من تاريخ يوسيفوس، ويسود اعتقاد عام بأنه قد اصطنعها، مما يكشف عن الجانب غير الجذاب فى شخصية يوسيفوس[٩].

ويتطلب الاعتماد على يوسيفوس قدرًا عظيمًا من الحرص. فقد كتب الباحث غير العاطفى، مارتن جودمان، ما يعتبر ـ من ناحية حججه ـ أفضل تقرير عن التمرد اليهودى.

ففى هذا الكتاب الذى يحمل عنوان «The Ruling Class of Judaea, The Origins of the Jewish Revolt against Rome 66-70».

يفصل بمهارة بين يوسيفوس بوق الدعاية وبين يوسيفوس المؤرخ الحقيقى.

لقد كان التمرد اليهودى ضد روما حرب فلاحين ضد الطبقة الحاكمة اليهودية فاحشة الثراء فى القدس، مثلما كان حربًا ضد حكم روما. والواقع، أن جودمان هو الذى أوضح أن روما انقلبت على الطبقة الحاكمة اليهودية بسبب عجزها عن السيطرة على الفلاحين.

ويستحق تحليل جودمان لحركة عصيان الفلاحين السابقة، التى قادها يهوداس الجليلى أن نوليه انتباهنا الخاص؛ لأنه يقدم لنا العقلية التى كانت لدى الناشطين الثوريين من الفلاحين، إذ إن استخدم جودمان للدليل الذى أخذه عن يوسيفوس حول يهوداس يوحى بأن هذا الأخير يقدم حركة مسيحانية، لم تكن تحترم الحدود الوطنية ولا الزعماء الوطنيين، إذ يكتب جودمان:

«لم يكن ما يقال إن يهوداس قد اقترحه هو مجرد أن الخضوع لروما كان شرًا، ولكن

قبول أى سيد من البشر كان خطأ لأنه لا يجب أن يحكم اليهود غير الله وحده . . . وكان تأثير هذه الأيديولوچية هى الفوضى والثورة .

كان أكثر الدوافع إلحاحًا لانضمام أى يهودى فى نضال عنيف ، هو الاعتقاد أن العصر المسيحانى لم يكن مجرد أمل مستقبلى . . . وإنما هو حقيقة واقعة . فما إن يصل المسيح ، وتكون المعارك الأخيرة ، [التى صورتها لفافة الحرب التى عثر عليها فى خربة قمران] [١٠] على وشك الاندلاع . . . فلن يكون أمامكم من خيار سوى المشاركة» (1987:93-4,91-2).

لدينا هنا «فوضى مسيحانية مذهبية» ، شكل من التحرر اليهودى لا يعترف بأى بناء لدولة ، سواء أكانت وطنية أم غير ذلك .

وبينما تعتبر راچاك ، وهى الخبيرة فى يوسيفوس ، أن هناك قدرًا من المبالغة فى التأكيد على النزعة المسيحانية (1983:40-1) ، فإنها تعزز التفسير الفوضوى الجديد بمفاهيم علمانية «قطع الطريق» و «اللصوصية» ، باعتبارها تفسيرات سياسية :

«كان قطاع الطرق ، بطبيعة الحال ، عدو المستوطنين وأصحاب الأملاك فى شتى أرجاء العالم القديم ؛ وحتى روما لم تستطع دائمًا أن تصدها عن الإمبراطورية . فالعصابات حالة متطرفة . وهى . . . كما يعترف يوسيفوس . . . أن معظم المتمردين لديهم أحقاد ضد أبناء طبقة أخرى غير طبقتهم ، وبعضهم على الأقل كان مسوقًا برؤيا ـ ربما غير مميزة ، وأحيانا مسيحانية ، ولكنها لم تكن بلا مضمون عملى ـ لمجتمع أفضل . . . » .

« . . . الثوريون . . . لا بد أنه كانت لهم أهداف اجتماعية وسياسية واضحة ، حتى لو كانت غامضة ومحددة بشكل سئ . . . والغموض . . . كان مختلطًا بالنقص العام فى الأيديولوچية الثورية الواعية فى العالم القديم . . . وربما نفترض [الأهداف] . . . والمعايير فى العالم الإغريقى ـ على أنها مطالب بإلغاء الديون (تذكر تدمير سندات المرابين فى سجلات معبد القدس) ولإعادة توزيع الأرض وهو ما لا يعلق عليه يوسيفوس» (1983:85,139).

وتقتبس راچاك من كلام إريك هو بسباوم فى كتابيه «Primitive Rebels» و«Bandits» قوله إن عصابات الفلاحين وقطاع الطرق ، باعتبارها شكلاً من الاحتجاج

الاجتماعى والسياسى البدائى ضد الظلم وعدم المساواة، لها تاريخ طويل ومشرف فى جميع أنحاء العالم فى العصور القديمة والعصور الوسطى.

وكان الزيالطة «Zealots» يشكلون أهم مجموعة ثورية منظمة فى التمرد، وتولوا السلطة في القدس لوقت قصير. وهناك تبدو بعض الاستمرارية التاريخية مع يهوداس الجليلى، حسبما يرى ڤيرميس على الأقل. وقد جندوا رجال العصابات لتقوية قاعدة سلطتهم في القدس (Goodman 1987:225). وعندما استولوا على المعبد اختاروا الحبر الأعظم الجديد عن طريق السحب حسب الحظ، وبذلك تجنبوا المرشحين من عائلات الطبقة الحاكمة التقليدية. وكان الحبر الأعظم الذى تم اختياره قاطع أحجار فى إحدى القرى، وربما كان هو أول حَبر أعظم من أصول على هذا القدر من التدنى. وتبدو فى هذا رنة من الحقيقة، إذا ما كان السبب هو أن يوسيفوس كان شديد الحنق لهذا، فقد استبعده باعتباره ريفيًا ساذجًا وجاهلاً (Rajak 1983:133).

وقد «سك الزيالطة أحسن عملات التمرد» (Goodman 1987:201 n.3).

والعملات لا تقدر بثمن لأنها أحسن دليل متاح - بعيداً عن يوسيفوس - عن الأهداف العامة للتمرد. «إذ إن الشعارات [التى تحملها العملات] أكدت على الحرية وعلى قداسة مدينة القدس... وحساب عدد السنين من إعلان الاستقلال يكشف عن بداية عهد جديد» (Goodman 1987:178). وهى تشى بنضال من أجل يهودية حرة ومستقلة، ومن أجل الدفاع المسلح عن مركزها الروحى، أى معبد القدس، ربما توقعا لوصول المسيح المخلص. ولكن هنا أيضًا تحثُّ راچاك على الحذر فى التعامل مع الشعارات على أساس أنها دينية خالصة:

«إن الشعار الواحد... هو الكلمة المفردة «الحرية»، الذى تحمله العملة، ويطرحه يوسيفوس كذلك. إن المعلقين على يوسيفوس من أصحاب العقلية اللاهوتية، وهم الأغلبية، قد قرأوا هذا قراءة أخروية، أى من خلال نظرة مؤمنة بالبعث والآخرة، باعتباره يشير إلى الأحوال التى سوف تنشأ فى يوم القيامة. إلا أن حتى... مثل هذه الدوائر... تسمح بأن نوع الحرية الذى كانوا يحلمون به... لا بد وأنه كان يحمل مكونا بارزًا عن التحرير العملى للمقهورين» (1983:139).

ويجادل جودمان أن فشل الطبقة الحاكمة اليهودية فى القدس فى السيطرة على

العناصر الفوضوية التى بدأت تظهر جذور لحركة التحرر، هو الذى أثار سخط روما إلى هذا الحد. وقد ألهب هذا تقليد تدريب مفسرين مستقلين للتوراة من بين الفلاحين، وكان هؤلاء أيضًا على استعداد لتقديم التبريرات الدينية لكلية الفلاحين ـ بشكل مستقل ـ للأرض.

ويكتب جودمان: «سيعرف الفلاحون أن النموذج الذى وضعه الرب في التوراة يتطلب من كل رجل أن يمتلك أرضه الخاصة باعتباره مواطنًا حرًا متساويًا مع الآخرين» (1987:67).

ويستمر قائلا:

«كان هناك كثير من الأحبار والخبراء فى تفسير التوراة الذين كانوا ـ على الرغم من أنهم مستبعدون خارج الطبقة الحاكمة ـ قد تمكنوا من تحقيق قدر كبير من الهيبة بين الجماهير، بيد أنهم لم يقوموا بأية محاولة للاستيلاء على السلطة لصالحهم، لأنهم مثل الفقراء عمومًا، كانوا يفتقرون إلى المؤسسات... ولم يكن الخطر على المجتمع كامنًا فى الثورة، وإنما تمثل فى الفوضى على نحو أكثر غدرًا» (1987:137).

ولا نستطيع أن نمضى فى المناقشة إلى أبعد من ذلك؛ لأنها لن تصل إلى نتيجة. ويمكننا أن نرى الخطوط الخارجية لصراع ثورى مرير، بيد أنه محجوب خلف ضبابيات الزمان. ومع ذلك يمكننا أن نستخرج رؤى داخلية مهمة من فئات الأدلة. ويمكن أن ننشغل فى حماسة بتفسير يوسيفوس غير الصادق، ولكن ينبغى أيضًا أن نكون مدركين للملاحظة التى أبداها عالم الدراسات الكلاسيكية المتيز دى ستى كرواك G.E.M.de Ste Croix:

«إذا لم يكن لدى الإغريق كلمة تعبر عن شىء ما... ربما يكون هذا تحذيرًا مفيدًا بأن الظواهر التى نبحث عنها ربما لم تكن موجودة...» (de Ste Croix 1983:35).

القومية فكرة حديثة. وهى تتطلب الإسهام الجماهيرى من جانب أناس واعين بأنفسهم باعتبار أنهم سيكونون مواطنين فى بنية دولة داخل أرض يتم تحديدها وطنيًا (Hobsbaum 1990:19). ونحن لا نملك ببساطة دليلاً من التمرد اليهودى يجعلنا نراه نضالاً من أجل التمرد الوطنى ليهودا، دعك من التحرير الوطنى «لأرض إسرائيل».

النفى إلى الجليل

هل أدى تدمير المعبد فى القدس فى أعقاب هزيمة المتمردين اليهود على أيدى الرومان، إلى «النفى»، على الأقل بالنسبة ليهود القدس ويهودا؟

من المؤكد أنه يبدو محتملاً أن منطقة القدس، وفى أعقاب حركات التمرد فى الشتات[١١]، وفى ريف مملكة يهودا بقيادة باركوخيا[١٢]، تم إخلاء بقية مناطق يهودا بالقوة من اليهود. ولا شك فى أنه كان هناك هجرة داخل الشتات اليهودى، ولكن كان هناك أيضًا هجرة مكثفة إلى الجليل، حيث كانت الديانة اليهودية، فى صيغة ربانية معدلة، مقدرًا لها أن تزدهر بموافقة الرومان. وقد اقتفى جودمان آثار وصول الربيين المنفيين من يهودا إلى الجليل فى ذلك الوقت، مستخدمًا مصادرهم الدينية ذاتها. والقصة التى يحكيها لنا هى عن اثنين من أهالى يهودا عقب التمرد اليهودى مباشرة. وهناك الديانة اليهودية الفلاحية «الموجودة بالفعل» التى تنتشر فى قرى الجليل المزدهرة، والتى وصفها ڤيرميس فى الصفحات السابقة، وهناك المحاولة التى قام بها الربيون المهاجرون الحرفيون[١٣] لطرح التزام أكثر صرامة بالشريعة اليهودية. وقد أبدت روما قدرًا كبيرًا من عدم الاهتمام بهذه العملية. (Goodman 1983:154)، على الأقل فى مراحلها الباكرة، ولم تهتم إلا بجمع الضرائب. (Goodman 1983:146).

وبينما نسجل مجرد عدد قليل من المميزات للصراع بين هذين الشكلين من الديانة اليهودية ـ فى ظل هزيمة حركات التمرد اليهودى وتدمير المعبد ـ فإن ما يترك الانطباع المؤثر هو الاستمرارية اليهودية وكذلك العلاقات الهادئة مع غير اليهود فى إقليم الجليل. ولدينا هنا لمحات عن الأخذ والرد مع الجيران غير اليهود فى الريف[١٤].

ووجهة النظر الصهيونية التى تقول بأن فى ذلك الوقت بدأ الألم والعذاب فى ليل «النفى» الطويل فى عالم تحكمه كراهية اليهود، لا محل لها ولا مكان فى الجليل. ويكتب جودمان أننا نعرف عن يهود:

«يأكلون سويًا مع الوثنيين، على الرغم من أنهم لا يأكلون طعامهم بالضرورة. . . وربما يساعد الوثنى فى سقاية حيوان جاره يوم السبت. . . ويفضل اليهود السفر بصحبة الوثنيين على مكابدة مخاطر السفر وحدهم. . . يجب أن يظهروا

التعاطف فى الأوقات التي يحزن فيها الوثنيون، ويواسونهم ويدفنون موتاهم والسبب الذى يقدمونه «لأساليب السلام» يوحى بأن مثل هذه العلاقات قامت حقًا وأجبرت الربيين على أن يكونوا متساهلين ضد رغبتهم . . .

وكان لا بد للاتصال الودى أن يتحول إلى علاقات حميمة . وربما كانت المرأة اليهودية تعير ملبسها إلى صديقة من الأمميين، وربما يعير الرجل جحشه، وهناك الكثير من التعليقات على القروض المالية فى كلا الاتجاهين . وكان يمكن للتعاون أن يمتد إلى الملكية المشتركة لمزارع الكروم والمزارع . . . ومن مثل هذه الأنشطة ربما كانت تنمو الثقة الكبيرة، لدرجة أن يهوديًا قد يأتمن وصيًا من الأمميين على بضائعه أو عائلته لكى يرعاها بعد وفاته . . . وربما كان اليهودى أيضًا يعين وصيًا من قبل أحد الأمميين . . » (1983:44) .

وقد سمحت كتابات الحاخامات بظهور الأشكال الوثنية المقدسة الممكنة على الأشياء اليومية مثل الغلايات، والأباريق، والأحواض وغيرها، ولكنهم لم يسمحوا بظهور هذه الصور على الأشياء الثمينة مثل المجوهرات . (Goodman 1983:69) ومرة أخرى، «غالبًا ما كانت الأعراف والتقاليد الإغريقية تقدم مادة موضوع الزخرفة ـ رأس الأسد، أكاليل الزهور، النسور، والملائكة للحليات فى المعابد . . . » (Goodman 1983:71) .

هل الجليل هى «المنفى»، «الشتات»، «أرض إسرائيل»، أم ولاية يهودية فى الامبراطورية الرومانية؟

والجليل هي مركز إنتاج التلمود الفلسطينى، الذى كان مقدرًا له مع التلمود البابلى[١٥] أن يصير المرشد الروحى لليهودية حتى عصر التنوير، بعد ألف وثلاثمائة سنة .

بيد أن هنا يكمن التناقض النهائى، إذ إن الجليل أيضا هى المكان الذي شهد أكثر كشف أثرى مذهل من التاريخ اليهودى القديم المتأخر، على أرضية من الفسيفساء لمعبد يهودى قديم : جوهرة قديمة حقيقة تحتفى فى وقت واحد بالرب الذى لا صورة له، وبإله الشمس، وهى شهادة على التعايش بين اليهود وغير اليهود .

القرن الرابع الميلادى
معبد قرب طبرية بأرضية عليها إله الشمس

ربما لا يوجد منتج آخر من تلك الفترة يكشف تمامًا عن التعبير الواثق عن التقاليد والهوية اليهودية فى داخل سياق تعددى، أو يربط ذلك بعناصر كثيرة للغاية من الزخرفة الفنية اليونانية ـ الرومانية. والفسيفساء (الموزايكو) الذى يشغل الممشى المركزى فى المعبد مقسم إلى لوحات ثلاث. الأولى تصوير موضع التوراة محاطًا بشمعدانين تحترق فيهما الشموع. ثم يلفت النظر تصوير دائرى للعلامات الإثنتى عشرة فى دائرة البروج، متمركزة على صورة عربة الشمس مع تجسيد Helios إله الشمس فى صورة شخص: وكل علامة تحمل إسمًا بالعبرية. وقد تم تجميعها فى أربعة فصول استخدم مصطلح عبرى للدلالة عليها، وهى مصورة على شكل نساء شابات، تتميز كل منهن أيضا باسم عبرى يقابل أسماء الشهور الأربعة: نيسان، وتموز، وتشرى، وتفيث.

وتحتوى اللوحة الثالثة، فيما بين صورة لأسدين، سلسلة من نقوش مختصرة باليونانية تحمل أسماء المحسنين... ثم اسم محسن آخر .... يمكن إعادة تكوينه من نقش يونانى آخر مواز، مصحوب هذه المرة بمباركة مكتوبة بالآرامية: «ليحل السلام.. على أى شخص نفذ وصية فى هذا المكان المقدس» (Millar 1993:364).

***